# أسس

# المنهج الإسلامي في دراسة تاريخ الأديان

أ. فرحات عبد الحكيم
كلية العلوم الاجتماعية والإسلامية
جامعة باتنة- الجزائر

من أهم علوم قرننا العشرين علم تاريخ الأديان، الذي يشترك مع علوم إنسانية كثيرة تآزرت على دراسة الأديان؛ كعلم الاجتماع الديني، وعلم النفس الديني، وأنثربولوجيا الأديان، وغيرها[1]. و مع أنه لكل علم من هذه العلوم خصائص تميز مجال تخصصه، إلا أنها تشترك في إطار فكري واحد؛ ألا وهو الفكر الغربي؛ أي في تصوراته الوجودية، وفي أدواته المعرفية والتحليلية. ويعرف هذا الاختصاص في وقتنا الحاضر بأسماء مختلفة، فسمي علم الأديان، كما سمي علم مقارنة الأديان، والتاريخ المقارن الأديان.

و علماء التاريخ الغربيين قد اجتهدوا في كتابة تاريخ الأديان، واختلفت رؤاهم في وطبيعة هذا العلم، و كيفية تحقيق أهدافه؛ إذ أن البعض منهم لم يفصل بين دراسة تاريخ الأديان و التاريخ العام، وتناولها كما يتناول أي فرع من التاريخ. والبعض قد اجتهد في تناولها بمنظار علوم إنسانية أخرى، ومن ذلك أن بعضهم وظف علم النفس، والبعض وظف علم الاجتماع و الأنثربولجيا، وحتى البنيوية، و الفينومينولوجيا، وغير ذلك من العلوم[2].

---

[1] راجع: حول المناهج الغربية الحديثة المستخدمة في دراسة الأديان راجع:
Michel mislin.**pour une science des religions**.(Paris:Le Seuil.1977)

[2] راجع اصول هذه المدارس في:

و الاتجاه السائد الآن هو محاولة جعل علم تاريخ الأديان علما كاملا للأديان يدرس تاريخها وبنيتها ووظيفتها و يكشف عن دلالاتها الثقافية، ويستفيد من كل الاختصاصات السابقة الذكر لتحقيق ذلك. وهو ما يدرس الآن باسم علم تاريخ الأديان في جامعة الصوربون. وما حاول أن يقوم به الباحث ميرسيا إلياد[3]، ليصير الهدف هو دراسة الإنسان المتدين Homo Religious، وأطره العقلية والاجتماعية والنفسية والفينومينولوجية، ودلالاته الثقافية. وعليه، فهو نوع من تاريخ الفكر الإنساني، بله نوع من الأنثربولوجيا الفلسفية[4]. و هذا العلم ما زال لم يطرح على بساط النقد والتحليل في عالمنا الإسلامي للكشف عن أسسه وخلفياته المنهجية، وهو ما سنحاول أن نقوم به في المطلب الموالي، ثم نتناول بعد ذلك الرؤية الإسلامية لهذا العلم، إن في المصادر، وإن في المنطلقات، وإن في النسق المنهجي المتبع.

## المطلب الأول: الخصائص المعرفية لعلم الأديان الحديث

و لا يخفى أن علم تاريخ الأديان الغربي هو علم يستند إلى نسق مرجعي خاص، ويهدف إلى الدراسة المنظمة لتاريخ الأديان، وقد ارتبط منذ نشأته بالمصادر الغربية الأولى لهذا العلم كما ظهرت في أوروبا على يد الرواد الغربيين الأوائل من أمثال: سبينوزا وفلهاوزن وأوتو، بوش، وغيرهم[5]، ويدعي أن معرفته تتصف بأنها مشتقة من الملاحظة و الخبر المنقود، و لا تعير أي اهتمام لأي مصدر معرفي آخر، كالوحي مثلا. ولا أحد يستطيع إنكار أهمية هذا النسق المرجعي بالنسبة لأي علم، بل إن ذلك هو الذي يحدد قيمته. ولا ريب أن المنهج وحده لا يكفي لتحقيق أغراض العلم المختلفة، إن في التحليل، و إن في التفسير، وإنما هو في حاجة إضافة إلى ذلك إلى إطار مرجعي ترد إليه المعطيات التي جمعت

---

Eliade Mercia . **la nostalgie des origines.** (france:gallimardm1977)
**Mislin** Michel. **pour une science des religions.** (Paris:Le Seuil.1971 ).pp36-72.

[3]. Eliade. **la nostalgie des origines.**p30.

[4] المصدر السابق، ص31.

[5] راجع: المصدر السابق، ص ص17-79.

من البحث باستخدام مختلف المناهج والأساليب والأدوات، بغية تحليلها وتفسيرها، وإلا فلن تكون لتلك المعطيات أهمية. و لكل رائد من رواد تاريخ الأديان التزام بتصور منهجي معين، قد يرجع إلى تصور ديني، وقد يرجع إلى قناعة إيديولوجية، يحاول أن يقدم به تصورا لطريقة تحليل تاريخ الأديان والنظم الدينية، و هو ما أنتج عدة مداخل منهجية لدراسة هذا المجال. وهذه المداخل ليست نظريات علمية، ولا هي طرق بحث فحسب، وإنما هي تصورات لطبيعة الدين وتاريخه من منظور معين، ونسق تصوري عن الكون والإنسان والمجتمع والتاريخ، وبناء منهجي لكيفية تحليل تاريخ الأديان ودراسته، وفي إطاره يعاد تركيب وقائع تاريخ الأديان بأبعاده وعلاقاته المختلفة.

والعالم الغربي الآن تسوده عدة مداخل منهجية في دراسة تاريخ الأديان، يمكن إدراجها تحت مدخلين كبيرين، وهما:

أولا: المنهج الوضعي: ويضم مداخل منهجية فرعية هي:

1. المنهجي الوظيفي
2. المنهجي البنيوي
3. المنهج الفينومينولوجي.
4. المنهجي التاريخي النقدي..إلخ

ثانيا : المنهج الماركسي[6]

وبالرغم من تعدد علماء تاريخ الأديان وتعدد نظرياتهم التي شيدوها حول ما يدرسونه في هذا العلم، وبالرغم من تعدد مدارسهم بحيث نجد المدرسة الوضعية، والمدرسة الماركسية، والمدرسة الوضعية المحدثة، والمدرسة الوظيفية والمدرسة البنائية، و المدرسة الفينومينولوجية، وغيرها من المدارس، وبالرغم من الخلافات الكثيرة بينهم،...، و بالرغم من كل ذلك نستطيع القول بأنهم ينتمون جميعا إلى إطار مرجعي واحد واتجاه نقدي واحد نسميه "علم تاريخ الأديان الغربي. و وصفنا هذا العلم -هنا- بالغربي ليس بدعا من القول، إذ أن علماء تاريخ الأديان الغربيين أنفسهم قد استخدموه، و قصدوا به ما كتب في

---

[6] راجع: Michel mislin.**pour une science des religions** فقد تناول فيه بالتفصيل مناهج المحدثين في دراسة تاريخ الأديان

هذا المجال في المدارس النقدية التي ظهرت في الغرب[7]. ونحن نقدر بأن كل من يأخذ بهذا التصور لعلم تاريخ الأديان و لمصادره، ولما هو واقعي أو موضوعي، فهو ينتمي إلى المدرسة الغربية، وأن ما ينتجه من معرفة حول الدين وقضاياه يصنف في إطار "علم تاريخ الأديان الغربي".

وأحسب أن كثيرا ممن ينسبون أنفسهم إلى الحداثة لن يعجبهم هذا القول، إذ أنهم يرون أن علم التاريخ عامة وعلم تاريخ الأديان خاصة قد اكتسب أدوات تحليلية و نظريات نقدية لا يمكن العدول عنها بحال، إذ أنها تمثل في نظرهم أرقى ما توصل إليه العقل الإنساني والرقي الحضاري في مجال التحليل، ولذا فكل محاولة لإعادة كتابة التاريخ عامة و تاريخ الأديان خاصة هو لغو من القول. أضف إلى هذا أن مجرد البحث عن الإسلامية في المنهج والنقد لن تكون له أهمية، والسبب أن ذلك نوع من اللاموضوعية واعتماد النظرة المعيارية في الكتابة التاريخية ونوع من تقييم التاريخ، وهو عين الذاتية. و الرأي عندي أن هذا الرأي قد جانب الصواب، و لا يسلم له ما يقول للأسباب التالية:

1. أن الزعم بأن الكتابة التاريخية يمكن أن تسلم من التصورات الفلسفية هو نوع من الهراء، إذ أنه من المسلم بين علماء الاجتماع والنفس أن كل نظرية تستند إلى إطار مرجعي يوجه الباحث في دراسته، ويقدم له التصور الشمولي لتفسير نتائجه النقدية. والمقصود بالإطار المرجعي هو مجموعة الأسس المنهجية التي يعتمدها الباحث في ملاحظة الواقع لدراسة الظواهر التاريخية، والتي تحدد جملة المبادئ والمسلمات الموجهة للبحث ومجالاته ولطبيعة المعرفة الإنسانية ومصادرها، بما في ذلك مجموعة التصورات الخاصة التي يتبناها الباحث عن الله و الكون والإنسان والمجتمع والتاريخ والدين، إذ لا يخفى أن النقد في علم تاريخ الأديان يتم في إطار تصور نظري سابق، تتم فيه ملاحظة الظواهر الدينية، لينتقل من مستوى الواقع إلى مستوى المعرفة، بحثا تفاصيلها وعلاقاتها وارتباطاتها الجدلية بالوقائع الأخرى. وهذا الإطار المرجعي يتضمن نوعين من المنطلقات:

---

[7] المصدر السابق، ص ص 12-25

أولا: المنطلقات الخلفية، وهي التي توجه الأساس النظري للبحث و أبعاده الميدانية على الرغم من عدم ظهورها داخل النظرية ذاتها، ولها أثر عميق على الدراسة التاريخية، إذ أنها توجه الباحث في كل عملياته النقدية، بدأ من اختيار مشكلات البحث ومجالاته وصياغة الفروض حتى الصياغة المنهجية للبحث و تحليل البيانات واستخلاص النتائج، وهذه الفروض على قسمين:

1. المنطلقات الأساسية: وهي الإطار الفلسفي الذي يستند إليه الناقد في دراسة وتحليل المادة التاريخية، وتتكون من مجموعة المعتقدات المتعلقة بالله والكون والإنسان و التاريخ و موقع الإنسان فيه.

2. المفاهيم الأساسية: وتتعلق بمجالات محددة تتصل بتاريخ الأديان و بالتصورات الأساسية حول الدين وطبيعته ووظائفه ومصادره، وحول التدين الإنساني الذي يقوم عليه المجتمع والتاريخ، ودور الإنسان داخل المجتمع الديني وموقعه من حركة تاريخ الأديان. ولا يخفى أن هذه المفاهيم هي نتائج تطبيقية للمنطلقات السالفة الذكر.

ثانيا: المنطلقات الموجهة، و هي التي تصاغ داخل نظريات علم تاريخ الأديان، ويمكن تسميتها بمسلمات الاختصاص. وهي بكل كل تأكيد ترتكز في الصياغة و الاستنتاج على المنطلقات الخلفية السالفة الذكر.

وليس لنا بعد هذا إلا أن نؤكد بأن علم تاريخ الأديان الغربي الحديث هي استمرار نقدي للفلسفات والإيديولوجيات الغربية، وأن من يدافع عن هذا الإطار باسم الحداثة والعلم والموضوعية هو غير عارف تمام المعرفة بفلسفة العلم الذي تخصص فيه.

2. أن أصحاب هذا المقال لا يدركون تمام الإدراك شروط إنتاج المعرفة والخطاب الإنساني، إذ أنه من المسلم الآن أن كل معرفة لا تسلم من تصورات الباحث الأساسية، وأن الناقد لا يمكن أن يفلت من قيود إطار مرجعي يؤسس له أركان فكره، وقد يكون هو مدركا لذلك، كما قد لا يكون مدركا، والمهم أن هذا الإطار موجود. وعليه، فالقول بوجود فكر حر وفكر آخر سلفي (أقصد بالفكر السلفي هنا ما كان يستند في فهمه

إلى النص المنزل) هو نوع من التعسف والتزين بالحداثة، إذ أن كل فكر يستند إلى إطار مرجعي، والفارق أن هنالك من الإطارات المرجعية ما هو نص منزل مدون، و هناك ما هو بشري ليس مدونا، وهذا ما يجعلنا نقلب النقد رأسا على عقب، ونصوبه جهة الفكر الغربي، ولمن ينتصر له كما صوبه لمحاول صياغة منهجية في دراسة تاريخ الأديان.

3. أن الزعم بأن الاستناد إلى إطار مرجعي إسلامي في دراسة تاريخ الأديان هو نوع من التقييم يدحضه أن الكتابة التاريخية هي فعل إنساني -بأتم معنى الكلمة- تعكس تصورات الإنسان ومعتقداته، ولذا فهي لا تسلم من التقييم أبدا، وتكمن خصوصية الإسلامية في اعترافها بذلك، وجعلها أساس التقييم هو الوحي المنزل، في حين أن الإطارات المرجعية الأخرى ترجع في ذلك إلى فلسفات إنسانية، وليس الثرى كالثريا، و و يمكنك أن تراجع كتب تاريخ الأديان، لتتأكد بأنها مملوءة بتحليلات تقييمة لتاريخ المعتقدات البشرية والتاريخ الإنساني عامة[8].

4. أن أصحاب هذا القول لم يقوموا بتحليل علم تاريخ الأديان تحليلا اجتماعيا معرفيا، ليعرفوا أن هذا العلم بدأت تظهر معالمه في الدراسة الغربية مع عصر التنوير، العصر الذي تميز بالفكر الملحد والثائر على الدين، والنافر من كل معيار ديني، والمتسم بغضب وسخط المجتمعات الأوروبية على الفكر الكنسي، والتسليم بأن سعادة الفرد هي امتداد لتفكيره وتأملاته لا غير، والاعتقاد بأن أفضل السبل لتنظيم المجتمع وتطويره هو استخدام الإنسان لقدراته الفكرية وإبعاد الأفكار الثيولوجية من كل الميادين، و من ذلك علم تاريخ الأديان. ويكفيك أن تراجع الكتابات التي حللت ما كتب في تلك المرحلة، وهي التي كانت أساسا نقديا ومنهجيا لما كتب فيما بعد.

5. إن أصحاب هذا القول قد اعتمدوا على الزعم بأن الحضارة الغربية الحديثة هي وحدة معرفية متجانسة، تصلح أن تكون معيارا للتقييم، ويكفي للإطاحة بهذا القول أن نعدد المدارس النقدية المتصارعة في علم تاريخ الأديان، حتى إن العلامة المعروف إلياد لم يستنكف عن

---

[8] راجع على سبيل المثال لا الحصر: رالف لنتون: شجرة الحضارة، (الجزائر: موفم)، ج1.

وصف المدارس المتصارعة في هذا العلم بأنها أزمة Crise[9]، ثم إن الحضارة الغربية لا تمثل إلا جزء من الإنسانية ومرحلة تاريخية من تاريخها، لا أكثر، ولهذا فالقول بأنها معيار للتقييم فيه الكثير من التعسف.

وهذا كله يؤكد لنا أن علم تاريخ الأديان ليست له الموضوعية الكافية التي يدعيها أصحابه أصحابه، إذ لا يعدو عن أن يكون استمرارا نقديا للفكر الغربي الحديث والمعاصر، وصياغة جديدة له في مجال تاريخ الأديان، وهو في الكثير من الأحوال يختلف مع التصورات العقدية الإسلامية، مما جعله أداة هدم لها، وبديل لا يمكن أن يعتمده من يعتقد العقيدة الإسلامية. وهو أهم سبب يدفع إلى ضرورة صياغة منهج إسلامي لدراسة تاريخ الأديان، يستند إلى التصورات الإسلامية، يلتفت إلى التراث الإسلامي يبحث فيه عن الثابت والمتغير، ليمكنه إعادة تأسيس رؤية إسلامية في هذا الاختصاص.

و لا داعي للتنويه بأن دراسة تاريخ الأديان ليست جديدة على الفكر الإسلامي، إذ قد عرفت في حضارتنا الإسلامية بأسماء مختلفة؛ فسميت علم الكلام، وسميت علم مقالات غير الإسلاميين، كما سميت علم الردود، وأشهر أسمائها هو 'علم الملل والنحل'، وتعد من أخصب العلوم التي تكونت إبان الحضارة الإسلامية، حيث كتبت فيها مؤلفات عديدة وتخصصت فيها أجيال من العلماء المسلمين بحثا ونقدا، مستخدمين مناهج مختلفة في تناول الأديان[10]، ترجع جميعها في فهمها وأسسها المنهجية إلى التصور القرآني حول الأديان المختلفة[11]، وهذا ما جعل الفرق شاسعا بينها وبين علم تاريخ الأديان الغربي في الأهداف والنتائج. ورغم فقد جرت عادة علماء تاريخ علم الأديان الغربيين على القول بأن نشأة الدراسة العلمية للأديان لم تعرف النور إلا مع القرن التاسع عشر،

---

[9] يمكنك أن تراجع تفاصيل بعض من أزمات علم تاريخ الأديان في:

Eliade. **Les Nostalgies des Origines**

[10] راجع بخصوص تاريخ الكتابات الإسلامية في دراسة الأديان:

Guy Monnot . **Islam et Religions**.(Paris:Maison noeuve,1986).p 243.

[11] راجع د. محمد خليفة حسن أحمد ، **علاقة الإسلام باليهودية – رؤية إسلامية في مصادر التوراة الحالية**،(القاهرة : دار الثقافة للنشر والتوزيع ، 1988) ص ص 39 – 60.

وأن ما كان قبل ذلك من دراسات فلا تعدو أن تكون ملاحظات بسيطة، أو قناعات دينية ليست لها الموضوعية الكافية ولا الاستدلال الموضوعي. وبذلك فقد أهدروا قرونا من الكتابات الإسلامية في هذا المجال على أساس هذا الزعم.

المطلب الثاني:

## الضوابط المعرفية للمنهج الإسلامي في دراسة تاريخ الأديان

إن علم تاريخ الأديان الإسلامي -في رأينا- هو تلك المعرفة القائمة على الدراسة المنهجية الرامية إلى دراسة تاريخ الأفكار الدينية والمتدين من منظور إسلامي. وهذا التعريف يشير إلى:

1. أن مادة علم تاريخ الأديان الإسلامي عبارة عن معرفة، إلا أنها ليست معرفة بسيطة ساذجة، أو معرفة فلسفية، وإنما هي معرفة علمية قائمة على البحث والدراسة والتحري، تعتمد منهجية منظمة للمعرف تاريخ الأديان، وتبتعد عن كل التفسيرات الظنية أو الذاتية، وكل الأهواء.

2..أن موضوع علم تاريخ الأديان الإسلامي هو تاريخ كل الأديان، وكل المتدينين.

3.إن جوهر علم تاريخ الأديان هو ارتكازه على التصورات الإسلامية في تحليلاته النقدية للعقائد الدينية و المتدينين، و هو ما يمتاز به عن مثيله الغربي. وهذا ما يعني استقلال علم تاريخ الأديان الإسلامي، استقلالا تاما عن علم تاريخ الأديان الوضعي، وعلم تاريخ الأديان الماركسي، و مرد ذلك إلى استقلالية التصور الإسلامي عن التصورين السابقين. ولا يخفى أن الإسلام قدم إطارا مرجعيا يستطيع توجيه دراسات وأبحاث علم تاريخ الأديان بما يحقق أهدافه على أحسن وجه، ويطرح تصورا شاملا و كاملا عن الألوهية والوجود والكون والحياة وما بعد الحياة، والإنسان ومركز الإنسان في الكون والوجود وغاية وجوده الإنساني والعملية التاريخية والدين والنبوة، الخ. كما يمده بتفسير شامل و متكامل للعلاقات والارتباطات بين تلك الحقائق. والإسلام في ذلك يختلف كثيرا عن كثير من التصورات الوضعية والماركسية،

حيث إنه الإسلام يتضمن مضمونا دينيا، كما يتضمن في طياته السنن التي تسير وفقها الأديان المعاشة والحياة الإنسانية. وإن الباحث المتدبر فيه، يمكنه أن يكتشف ما قلناه، ويفسر بمقتضاه ظواهر ووقائع الأديان المختلفة.

و يعتمد علم تاريخ الأديان الإسلامي يعتمد في معرفته على مصادر أساسية، وهي:

1. مصادر الوحي الإسلامي
2. مصادر علم تاريخ الأديان الإسلامي
3. مصادر علم تاريخ الأديان الحديث

1. مصادر الوحي الإسلامي: لسنا بحاجة الآن إلى إثبات الأهمية المعرفية للوحي والنبوة، إذ أن ذلك صار من مسلمات الفكر الإسلامي التي لا يمارى فيه، والمقصود بالوحي هنا هو القرآن والسنة. وبمراجعته يظهر أنه قد تناول قضايا وتصورات تخص مفهوم الدين وعناصره التحليلية ووظائفه النفسية والاجتماعية والتشريعية. كما أوضح تصورا شموليا حول الأديان التاريخية، وما اعتراها من تحريف وتبديل، و بين وسائله ودوافعه. أضف إلى هذا أنه أشارا باستمرار إلى عقائد الأمم والأقوام والشعوب والقبائل والعشائر، وتناول بعضا منها بالعرض والنقد والتأريخ، ولفت الانتباه إلى أن السنن الإلهية في تاريخ الأديان صارمة ودقيقة كسنن الله في الطبيعة، وأن الأمم لها آجال كالأفراد. وهذه الإشارات النقدية الأولية توجب القيام بدراسة تحليلية لكل نصوص القرآن والسنة المتعلقة بالدين وبالأديان التاريخية المختلفة، لاستخراج نسق منظم حول هذه المسائل، و هو ما يمكن أن يكون مصدرا مهما لا نظير له لتأسيس منهجية إسلامية خاصة بدراسة تاريخ الأديان.

ويمكنني أن ألخص ما يمكن أن يمده الوحي الإسلامي لدراسة تاريخ الأديان في النقاط التالية:

1. الإطار المرجعي لدراسة تاريخ الأديان: فالوحي الإسلامي قد وضع نسقا متكاملا من المفاهيم والمنطلقات المتعلقة بكل الوجود والتي لها صلة بالأديان من بعيد أو من قريب، ومنها التوحيد، و الإرادة الإنسانية وأثرها في التاريخ، والنبوة، والوحي، وغيرها، كما أشار إلى

العوامل التي يمكن أن تؤثر فيها، ليمدنا بذلك بنسق تفسيري يمكن أن نفسر به أحداث تاريخ الأديان التاريخية، والعوامل المؤثرة فيها، والوظائف التي يمكن أن تؤديها في التاريخ أو أدتها فيه فعلا، وهو ما يظهر من خلال قصص الأنبياء في القرآن وأخبارهم مع أقوامهم.

2.صياغة مبادئ البحث الأساسية في تاريخ الأديان. فقد أوضح القرآن في مواضع كثيرة قواعد التفكير الأساسية التي تطورت فيما بعد لتكون منطق الأصوليين و متكلمي الإسلام، و تناول في العديد من الآيات مبادئ نقد الوثائق التي تطورت فيما بعد لتصير علم التخريج ونقد الرواة والمرويات. وتناول أنماط المتدينين بالتحليل، من خلال عرضه لأقوام الأنبياء. كما طرح المنطلقات الأساسية لعلم تاريخ الأديان، وأكد على إمكانية دراسة الدين دراسة علمية. وأن هناك نواميس للتدين الفردي والجماعي يمكن اكتشافها، و أشار إلى إمكانية دراسة التدين دراسة تعليلية والبحث عن العوامل المؤثرة، و أكد أن للدين أدوار تاريخية وحضارية يمكن أن يؤديها، كما تناول علاقتهما مع باقي المناحي الإنسانية المختلفة. وكل هذا يؤكد لنا أن الوحي الإسلامي كان يهدف أيضا إلى تحليل ظاهرة التدين والمتدين و دلالاتها المختلفة. وكل هذه الإشارات هي روافد تساعد في التقعيد للمنهجية الإسلامية في دراسة تاريخ الأديان.

3.بنية الدين ووظيفته: وهو من أهم ما تناوله القرآن، إذ تعرض لبنية الدين، وتناول عقائده وشرائعه. إن المنزلة، وإن التي لحقها التحريف والشرك والابتداع. كما تناول الوظائف التي يمكن أن تكون للدين، أو كانت له في بعض الحقب التاريخية، وهو ما أبرزه قصص الأنبياء في القرآن الكريم.

4.مصادر الظاهرة الدينية: حيث تكلم الوحي الإسلامي عن تاريخ نشأة الأديان في الأرض، باستعراضه لقصة آدم عليه الصلاة والسلام، وكيفية نزوله إلى الأرض، وحقيقة عقيدته، وحقيقة الوحي والنبوة، ثم تحدث عن التغييرات التي دخلت على هذا التوحيد وغيرت معالمه بطرق مختلفة، ذكر منها الشرك، والابتداع والتحريف، وغيرها، والتي كان لها دور فاعل في تكوين الأديان التاريخية المختلفة.

5.الطبيعة البشرية والشخصية: فقد أشار الوحي إلى فطرية التدين في النفس الإنسانية، وبين أساس هذه الفطرة من العقل والنفس، وبين أن التوحيد والإسلام فطرة أيضا في الإنسان.

6.تاريخ الإسلام على وجه الأرض: وقد خصها القرآن بتحليل كبير من خلال عرضه لعقائد الأنبياء وشرائعهم، وأكد أن دينهم ودين أتباعهم المؤمنين بهم هو التوحيد، وهو الإسلام لا غير، وأنه هو الأصل في الأديان، بدأ بآدم عليه السلام، وانتهاء بمحمد عليه الصلاة والسلام، لا كما يقول التطوريون بأن الشرك أصل والتوحيد فرع.

7.أخبار أديان الأقوام البائدة: وقد خص القرآن الأقوام البائدة بتفصيل عن عقائدهم، ومن ذلك أخبار الأقوام التالية: أخبار أبناء آدم، أخبار قوم نوح، أخبار الشاميين القدامى المعاصرين لإبراهيم عليه السلام، وأخبار يوسف، وغيرهم.

8. الربط بين التاريخ الديني وباقي الدراسات التاريخية والأبحاث الإنسانية، إذ لم تقصر الوحي الإسلامي في تحليله للتاريخ الديني على الماضي والحاضر -في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام - ولكنها تجاوزت في بعض الآيات إلى المستقبل على اعتبار أن الماضي والحاضر والمستقبل وحدة حيوية متصلة في القرآن الكريم، وقد ظهرت هذه الرؤية المستقبلية في صورة تنبؤات تاريخية يحيطها علم الله الواسع بالصدق المطلق. ولم يسرف في التنبؤات التاريخية، واكتفى بوضع الخطوط العريضة التي تحكم حركة الإنسان والمجتمعات و التاريخ والدين، كما تحكم الحياة الدنيا والآخرة، مستهدفا بذلك تقديم القواعد والخطوط الأساسية التي تحكم مسيرة تاريخ الإنسان وبيان مصيره.

9. تناول الوحي الإسلامي مسألة القوانين التاريخية أو ما أطلق عليه القرآن اسم السنن، التي تحكم حركة الأديان والإنسان والمجتمعات في الحياة الدنيا وحتى في الآخرة. و هذه السنن تتفق مع طبيعة الدين وخصائص الإنسان ومكونات العالم ومعطياته، كما تنبثق عن ربط محكم بين طبيعة العلاقات الاجتماعية والعلاقات بين الظواهر الطبيعية، وتلك التي تربط الإنسان بالعالم الطبيعي الذي يتحرك فيه ويتفاعل معه. وهي في نظر القرآن الكريم ثابتة فعالة تنطبق على كل الجماعات بغض النظر عن خصائصها، وهي سنن الله الحاكمة والضابطة للإنسان ومجتمعه

وتاريخه. و هو ما يعطي للناقد إمكانية اعتماد الوحي الإسلامي في تفسيره للأحداث التاريخية،والسلوك الديني، لاستنتاج نتائج من مجموعة معينة من الأحداث التاريخية، لوجود ارتباط بين المقدمات والنتائج، اعتمادا على مبدأ استمرارية السنن التاريخية التي خلقها الله سبحانه في الحياة الدنيا. ولذلك تعد هذه السنن التاريخية الواردة في الوحي إطارا عاما يمكنه تفسير الأحداث والوقائع التاريخية والأفكار الدينية، المعاصرة و المستقبلية. و بهذا يظهر أن هذه النواميس التاريخية يمكن استنتاجها أيضا من الدراسة العميقة للوحي الإسلامي كما يمكن استنتاجها من الدراسات الاستقرائية لتاريخ الأديان.

والوحي الإسلامي بإعطائه هذه التصورات كان له دور كبير في توجيه الدراسات الإسلامية قديما ميدانيا في مجال تاريخ الأديان، إذ أن هذه المنطلقات صارت موجهات بحث، بل وفرضيات يسعى الناقد للتثبت منها ميدانيا، بعد أن تبت منها من مدخل الإيمان، فيزداد إيمانا على إيمان. و يمكنني أن أدلل على ذلك بقضية واحدة، وهي قضية التحريف التي اتهم الله بها النصارى، فقد استلمها المفكرون المسلمون بتفاصيلها من الدرس القرآني، لتصير موجها للبحث في دراسة تاريخ الديانة النصرانية، ومفهوم بحث، ومقولة جديدة تحتاج التنزيل والإثبات ميدانيا، وقد كان لذلك فضل في ظهور مناهج جديدة لدراسة تاريخ الأديان، منها المنهج التاريخي النقدي للكتب المقدسة، والمنهج المقارن، والمنهج التكويني، ومنهج المخالفة في الأصول والفروع. كما كان له فضل في تطور نتائج النقد في الدراسات المسيحية، وإثبات الصدق القرآني في اتهامه للنصارى بالتحريف، وبالتالي دليلا آخر من دلائل نبوة الرسول ﷺ[12]. والدراسات النصرانية المعاصرة، نجدها قد أقرت مبدأ التغير الدخيل على العقائد النصرانية حديثا، فسمته تطورا، ولكنها تاهت في صياغة نظريات حول العقائد النصرانية، فهي غنوصية، وهي صوفية يهودية، وهي غير كذلك، بما لا يمكن التحقق منه أبدا، فالمراجع التي اعتمدتها لا

---

[12] راجع تفصيل ذلك في: عبد الحكيم فرحات، **منهج القاضي عبد الجبار في الرد على النصارى**، رسالة ماجستير غير منشورة،(الجزائر – قسنطينة: جامعة الأمير عبد القادر، 1996)، ص ص 82-86

تسعفنا إلا بظنيات[13]، وهو ما يفسر عدم تقدم الدراسات النصرانية كثيرا، إذ أنها تفتقد نسقا منهجيا بينا، خلافا للدراسات الإسلامية التي جعلت من دراسة النصرانية امتداد طبيعيا لدرس العقيدة والنبوة والوحي[14].

2.مصادر علم تاريخ الأديان الإسلامي، الذي تأثر بمصدر الوحي الإسلامي، وهو تراث زاخر بكتابات علمية متنوعة حول الأديان، تختلف نماذجها الدراسية اختلافا كبيرا؛ فمنها ما اهتم بتفسير المواقف القرآنية أو النبوية من الأديان الأخرى؛ ومنها ما اهتم بدراسة أحوال الأديان الأخرى من غير نقد، ومنها ما اهتم بنقد الأديان والرد على أصحابها. ولا يخفى أن دراسة هذا التراث سيمدنا بخبرة منهجية هائلة، تكشف عن كيفية تعامل الفكر الإسلامي مع الوحي والواقع البحثي معا، ليفرز معرفة مقبولة بالدين، وتكشف عن المناهج المستخدمة وأدواتها النقدية، وهو الأمر الذي يحبذ القيام بمسح شامل للتراث الإسلامي في مجال دراسة الأديان والبحث في أغواره. ولا يخفى أن الفكر الإسلامي هو نتاج تفاعل العقل المسلم في تفاعله مع الوحي الإسلامي والواقع المعيش، و لذا وجب التمييز بين الإسلام والفكر الإسلامي في مجال تاريخ الأديان، للاعتبارات التالية:

1.إن الإسلام وحي إلهي والفكر الإسلامي اجتهاد بشري

2.أن الإسلام ثابت ومطلق، إذ هو من عند الله الذي ليس كمثله شيء، وأما الفكر الإسلامي فلا يعدو عن أن يمون نتاجا بشريا يعكس ما عليه الإنسان من إمكانية خطأ.

و هذا التمييز بين الإسلام والفكر الإسلامي أساسي لتبرئة الإسلام من بعض فهوم الفكر الإسلامي التي قد تسيء للإسلام. إذ الكتابات الإسلامية في الأديان لا تعدو أن تكون اجتهادا لا يمثل إلا وجهة نظر صاحبها، ولا يتصف بالإسلامية إلا إذا اشتمل على صفات، أهمها الإيمان بأن الإسلام هو وحي منزل من عند الله تعالى، والالتزام بتصوراته

---

[13] شارل جبير، **المسيحية نشأتها و تطورها**، ص ص14-24.

[14] القاضي عبد الجبار، **تثبيت دلائل النبوة**،ج1، ص94. وفرحات، **منهج القاضي عبد الجبار في الرد على النصارى**، ص85

واستمداد الأهداف والمبادئ والقيم والمعايير منه دون سواه، أضف إلى هذا، ضرورة العلم بالأساسي من علوم الوحي الإسلامي، ليعرف كيفية التعامل، وهو ما يستوجب ما يلي:

1.أن التقيد بنصوص الوحي قطعية الدلالة و قطعية الثبوت بلا تغيير ولا تأويل ولا تعطيل، إذ أنه معلوم أنه "لا اجتهاد مع النص".

2.معرفة أسس التعامل مع النقل، حتى لا يقع في المحظور من التفسير والتأويل.

3.استبعاد الدخيل من التصورات الفلسفية البعيدة عن الإسلام.

وأحسب أن هذه الضوابط بإخراج كثير من المحسوبين على الإسلام، وليسوا منه في شيء.

هذا، وإن الفكر الإسلامي قد اهتم بجوانب مختلفة من الظاهرة الدينية، نوجزها في العناصر التالية:

1.قضايا علم النفس الديني: حيث نجد اهتمامات إسلامية بها، وأخص بالذكر منها منهاج العابدين، لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي[15]، الذي اهتم بدراسة السلوك الديني، وتحليل أسسه وخلفياته المختلفة والعوامل المؤثرة فيه خاصة منها العوامل النفسية و الروحية.

2.قضايا علم الاجتماع الديني: و هي وافرة في تراثنا الإسلامي وأخص بالذكر منها مقدمة ابن خلدون الذي أسس في مقدمته الأسس العامة لتحليل اجتماعية الظاهرة الدينية.

3.قضايا الأنثربولوجيا الدينية: وهي ومتوفرة في كتب الرحالة المسلمين، وأخص بالذكر كتاب البيروني، 'تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة' الذي درس فيه وحلل المعتقدات الهندية تحليلا أنثربولوجيا.

4.قضايا فلسفة الأديان: و كتب علم الكلام الإسلام والفلسفة الإسلامية حافلة بذلك، حيث تناول المتكلمون الكثير من المسائل التي تثيرها الفلسفات التحليلية للأديان في وقتنا الحاضر.

---

[15] راجع: أبي حامد الغزالي، **منهاج العابدين إلى الجنة**، (بيروت: دار الكتب، 1966)

5.قضايا تاريخ الأديان، وهي من الكثرة بحيث لا يمكن إحصاء ما كتب فيها، ويدخل هنا ما كتبه علماء الكلام، وعلماء الملل والنحل، وعلماء التاريخ الإسلامي.

و هذه الروافد الخمسة كلها تحتاج تحليلا ونقدا للاستفادة منها في تأسيس منهجية إسلامية لكتابة تاريخ الأديان.

3.مصادر علم تاريخ الأديان الحديث: تطورت دراسة الأديان حديثا، ووظفت مناهج دراسية مختلفة، وتكافلت العلوم الإنسانية فيما بينها لتعطي معرفة شمولية بالدين، وصارت دراسة الأديان بغية لعلماء اللغويات والأساطير والاجتماع والنفس وغيرهم، كل يفيض بما عنده. فازدادت النتائج المعرفية عمقا ونضجا، وهذا لا يمنعنا من أن نقول إن دراسة الأديان لم تعدم تأثرا بالفلسفات الغربية، إذ أن هذه الفلسفات تؤسس النسق الخلفي للمناهج الدراسية في علم الأديان الغربي، وهو ما يجعلنا نحتاط من نتائجها النقدية ونظرياتها التفسيرية.

ولا ريب أن علم تاريخ الأديان الحديث له مصادر معرفية مختلفة يستند إليها لجمع معطياته، ونقدها، فهو يستند إلى علم الوثائق، وعلم الآثار، وعلم المسكوكات، وعلم الخطوط القديمة، وغيرها، ولا جرم في اعتمادها، مع ضرورة الالتفات إلى الخصوصيات و الآثار التي يمكن أن تنجم عن تنسيق الفكر الغربي جملة، مثال ذلك الاعتماد على التخمين في التأريخ لنشأة الدين الأول على وجه الأرض، إذ أنهم لا يستندون في ذلك إلا إلى التخمين[16]. وتجدر الإشارة إلى أن بعض هذه العلوم لها ما يضاهيها في الفكر الإسلامي، فعلم الوثائق مثلا يمكن أن يستبدل بعلم التخريج وعلم توثيق المرويات(أو كما يسميه بعض المحدثين ضبط المرويات)، شرط إجراء بعض التعديلات عليها لتتناسب مع الموضوع المطروح، وأحسب أن ذلك سيثري دراسة تاريخ الأديان أيما إثراء.

---

[16] هنالك فرق بين التأريخ الذي يعتمد على معطيات ثابتة ليستنتج منها معطيات أخرى بدلالة اللزوم، وهذا النوع قد يسميه البعض التأريخ الظمي، والنوع المشار إليه الذي لا سرجع في طرحه إلا إلى الخيال.

إن مصادر علم تاريخ الأديان يمكن أن تمدنا بأدوات معتبرة لتأسيس علم تاريخ الأديان ذي المنظور الإسلامي، إذ يمكننا أن نستفيد من مصادره وتقنياته ومناهجه الدراسية المختلفة، وأدواته النقدية المتعددة، شرط إخضاعها إلى عملية نقد دقيقة، خاصة ما اتصل منها بالنسق المنهجي كما أثبتنا سابقا.

وبذلك يتأكد لنا أن علم تاريخ الأديان الإسلامي يمتاز بالأصالة والتجدد والانفتاح. فهو أصيل لأنه يرتبط بمحور ثابت غير متغير هو "القرآن والسنة" باعتبارهما نصوصا أصيلة وثابتة، وهو متجدد لأنه يرتبط أيضا بما ينتجه الفكر المسلم من معارف انطلاقا من الوحي الإسلامي و اعتبار الحياة البشرية.

## المطلب الثالث:

## المنطلقات الأساسية للمنهج الإسلامي في دراسة تاريخ الأديان

ثمة قيم ومسلمات يمكن اكتشافها من خلال تناول الوحي للأديان، لها دور كبير في توجيه البحث في العقائد الدينية، وهي :

1. أن الكون مخلوق، وخالقه هو الله سبحانه وتعالى، فهو لم يلت بالصدفة، ولم يخلق نفسه ويقول تعالى: (الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمان فاسأل به خبيرا)[17]. ويعد التوحيد أهم مقصد قرآني التوحيد، فقد تأسس عليه القرآن كله، والتوحيد صفة إلهية توجب لله عدم المثلية. كما في قوله تعالى: ( قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد)[18]، وللتوحيد اعتبارات مختلفة، فمنه توحيد ذات، ومنه توحيد صفات، ومنه توحيد أفعال.و حضور التوحيد في التناول القرآني للأديان واضح في آيات كثيرة، ومنها قوله تعالى: ( لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم، قل فمن يملك من الله شيئا، إن أراد أن يهلك

---

[17] سورة الفرقان، آية59.
[18] سورة الإخلاص.

المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعا، ولله ملك السموات والأرض، وما بينهما، يخلق ما يشاء، والله على كل شيء قدير)[19]، فالأمر كله لله، وما المسيح إلا عبد من عباده. وقوله تعالى: (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم، ولا تقولوا على الله إلا الحق، إنما المسيح عيسى ابن مريم، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فآمنوا بالله ورسله، ولا تقولوا ثلاثة، انتهوا خيرا لكم. إنما الله إله واحد، سبحانه أن يكون له ولد، له ما في السماوات وما في الأرض، وكفى بالله وكيلا)[20]، فالتوحيد يقتضي تعاليه تعالى عن الولد، وهو أساس التصور القرآني.

2.أن لكوننا نظاما، وأن هذا النظام يشمل نواميس إلهية ثابتة منسجمة فيما بينها، وهي تطبق كل مرة، وليس بالضرورة أن تكون بنفس الصفة، يقول تعالى: (سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا)[21]

3.الإنسان مخلوق مكرم، خلق للعبادة، وله القدرة على اكتشاف النواميس التي تحكم نظام الكون بما فيها نواميس التاريخ والأديان والمجتمع، عن طريق البحث العلمي.

4.للأديان خصوصيات وجودية من حيث الظاهر والباطن عن بقية الظواهر و الأشياء، وهو ما يطرح ضرورة التميز أيضا عنها في المنهج وطريقة الدراسة.

5.أن مصادر المعرفة الإسلامية هي الوحي و العقل المنهجي و الخبر الصادق والتجربة القائمة على المشاهدة، وهي متكاملة فيما بينها، ولكل اختصاص، فالوحي يختص بعالم الغيب ومرجعية للمنهج، والعقل، يتدبر ويربط بين أصناف القضايا. و أما الخبر الصادق مجاله التحري في نقل الأخبار كما كانت عليه في الواقع، والحس يهتم بكل ما هو حسي وخاضع للتجربة.

---

[19] سورة المائدة،آية 172
[20] سورة النساء،آية171.
[21] سورة الفتح، آية 23.

6.أن بداية الدين على وجه الأرض نشأت مع آدم لما أنزله الله من الجنة إليها إثر خطيئته، يقول تعالى: (قُلْنا اهْبِطُوا مِنْها جميعًا فإمّا يأتِيَنّكُمْ منّي هُدًى فمنْ تبع هُداي فلا خوْفٌ عليْهِمْ ولا هُمْ يحْزنُون)[22].

7.أن الله ارتضى لبني آدم من أولهم إلى آخرهم دينا واحدا هو الإسلام، والذي عقيدة وشريعة، حيث إن العقيدة ثابتة واحدة من لدن أول نبي آدم إلى آخر نبي عليهم الصلاة والسلام، وأما الشرائع فتختلف، وإن كانت تدور حول نفس المقاصد، ألا وهي حفظ الضروريات و حفظ الحاجيات، وحفظ التحسينيات، وهذا الدين قد بعثه الله إلى كل الأمم المختلفة في كل الأزمنة والأمكنة عبر العصور المختلفة، يقول تعالى: (ووصّى بِها إبْراهِيمُ بنِيه ويعْقُوبُ يا بنِيّ إنّ اللّه اصْطفى لكُمْ الدِّين فلا تمُوتُنّ إلّا وأنْتُمْ مُسْلِمُون)[23]. ويقول: (إنّ الدِّين عنْد اللّه الْإِسْلامُ وما اخْتلف الّذِين أُوتُوا الْكِتاب إلّا مِنْ بعْدِ ما جاءهُمْ الْعِلْمُ بغْيًا بيْنهُمْ ومنْ يكْفُرْ بِآياتِ اللّهِ فإنّ اللّه سرِيعُ الْحِسابِ)[24].

8.أن الله أرسل في كل أمة أنبياء منهم يعرفونهم ما جهلوه من الإسلام أو ما نسوه منه، وبعث مع بعضهم كتبا، ولم تخل أمة من ذلك، يقول تعالى: (إنّا أرْسلْناك بِالْحقِّ بشِيرًا ونذِيرًا وإنْ مِنْ أُمّةٍ إلّا خلا فِيها نذِيرٌ)[25].

9.أن دين الأنبياء أي الإسلام قد اعترته فترات اندثار وتغير، ليصير شركا بعد أن كان توحيدا، ثم بعث الله بعدها من يصلحه من رسله، وهذا التغير هو الذي أنتج الأديان الوضعية التاريخية التي تخالف الإسلام في العقائد والمقاصد، يقول تعالى:(فبدّل الّذِين ظلمُوا قوْلًا غيْر الّذِي قِيل لهُمْ فأنزلْنا على الّذِين ظلمُوا رِجْزًا مِنْ السّماءِ بِما كانُوا يفْسُقُون)[26].

---

22 سورة البقرة، آية38.
23 سورة البقرة، آية132
24 سورة آل عمران، آية19.
25 سورة فاطر، آية24.
26 سورة البقرة، آية59.

10. أن الأديان التاريخية الوضعية هي نتيجة الشرك والتحريف والابتداع الذي ألحقه البشر بالإسلام الذي أنزله الله، كما حدث للنصرانية واليهودية والصابئة، وغيرها، يقول تعالى: :(فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون)[27].

11. هنالك فرق بين الدين والتدين، فالدين هو التصور النظري لما يجب أن يكون المتدين، وأما التدين فهو كيفية ممارسة المتدين لهذا الدين.

12. إن التصورات القرآنية تعتمد على مبدأ: (إن الدين عند الله الإسلام)[28]، ومبدأ(ومن يبتغي غير الإسلام دينا فلن يقبل منه) ، وهو ما يمدنا بمفاهيم وتصورات تجاه الأديان الأخرى، فالقرآن لا يعترف بالأديان الأخرى ولا يرى لها مشروعية وجود، فما الدين إلا الإسلام، وما هذه الأديان إلا مظاهر من الشرك والتحريف. وقد أتبع القرآن ذلك تحديدا لكيفية معاملة هذه الأديان، سواء على المستوى الاجتماعي، كما في قوله تعالى: (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين، ولم يخرجوكم من دياركم، أن تبروهم وتقسطوا إليهم، إن الله يحب المقسطين)[29]؛ أو على المستوى المعرفي والعقائدي، كما في قوله تعالى: )وجادلهم بالتي هي أحسن)[30]. فالمسيحية مثلا في نظر القرآن صارت محرفة، إذ يصرح أن عيسى عليه السلام أرسل برسالة إلى قومه، كغيره من الأنبياء الذين أرسلهم الله إلى أقوامهم، ليعبدوا الله واحدا لا شريك له، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة ، ويتعاونوا فيما بينهم، قال تعالى: (قال إني عبد الله آتاني الكتاب، و جعلني نبيا، و جعلني مباركا، أينما كنت، وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا، و برا بوالدتي، ولم يجعلني جبارا شقيا)[31]، فالمسيح عيسى عبد مخلوق، ونبي أوحى الله

---

[27] سورة البقرة، آية59.
[28]. آل عمران، آية 85
[29].. سورة الممتحنة، آيات8-9
[30] سورة الممتحنة، آية 125
[31] سورة مريم، آية

إليه، أوصاه بالصلاة والزكاة، لا كما يقول النصارى بأنه إله وابن إله أحد الأقانيم الثلاثة.

وهذه المنطلقات لها دور إرشادي وتوجيهي الدراسة في تاريخ الأديان، و صياغة إطار البحث وفروضه. وقد بينا في المبحث السابق في تناولنا للوحي الدور الذي أدته هذه المنطلقات في توجيه دراسة تاريخ الأديان وتطوير نتائجه، إذ أنها قد تصير موجها للنقد في اختيار مجالات البحث، وغاياته ، للتثبت منها ميدانيا. كما أنها لها دور في كل تفسير يقوم له الباحث المسلم في تاريخ الأديان.

المطلب الرابع:

## النسق الإجرائي للمنهج الإسلامي في دراسة تاريخ الأديان

وبما أن الوحي الإسلامي قد اهتم بالتأصيل للإطار المنهجي والمرجعي للمعرفة عامة، فإنه يمكننا أن نصوغ نسقا منهجيا إجرائيا لكتابة علم تاريخ أديان متميز عن علم تاريخ الأديان الغربي، نستطيع به الفهم والتحليل والتفسير المتوافق مع الوحي والعقل والعلم، وهو ما يميز المنظور الإسلامي. و هذا النسق يكفل للبحث خطوات محددة، وإجراءات نقدية إن لم تكن مفصلة فهي على الأقل مجملة، وأحسب أنه يقوم على العمليات النقدية التالية:

### 1. مرحلة جمع المعلومات:

يمكن جمع المعلومات في المنهج الإسلامي من كل المصادر الممكنة، بشروط وهي:

1. تحديد التصورات الإسلامية الخاصة بالمرحلة التاريخية من تاريخ الدين المراد بحثه، أو الديانة المختارة، ونلفت الالتفات هنا إلى أن بعض هذه المراحل من تاريخ الأديان قد خصها الوحي الإسلامي بالعرض، كمراحل من العقائد اليهودية، ومراحل من النصرانية والوثنية، وغيرها، وأن هنالك مراحل كثيرة أخبرنا الله عنها جملة، فلم يزد عن أنه قد أرسل فيها الأنبياء يبشرونهم بالإسلام والتوحيد، كما فعل في قوله تعالى: : (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا

نذير)[32]. ولا تخفى أهمية هذه الخطوة، إذ أن الاستحضار سيجعل الناقد يهتم بما هو أهم فيثيره، فهب أنك تريد دراسة تاريخ العقائد اليهودية، فإن التصورات القرآنية تؤكد على التحريف، وأن الدين قد استخدم لأغراض مادية، وأن التجسيد الذي حل بينهم هو مضاهاة للأمم الكافرة التي كانت من قبل، ليصير التوحيد شرك، ويصير الوحي خرافات إنسانية، وهو ما يحفز الناقد التاريخي على تنزيل هذه الرؤية التاريخية على أرض الواقع التاريخي، وهنا لا تلبث هذه المنطلقات أن تصير عنصرا فاعلا في البحث، وموجها للنقد، للبحث عن ما يؤيدها هذا الاتهام، وبعد من قبيل تنزيل الوحي على الواقع. وليس ذلك من قبيل إسقاط المفاهيم الإسلامية، وإنما هو توجيه للباحث حتى لا يهتم بقشور البحث. ولا يعني هذا أنه لا يصح بحث المراحل التاريخية الأخرى التي لم يتعرض لها الوحي، فلا حجر على أحد.

2.القيام بمسح تاريخي ديني للفترة التاريخية المراد دراستها، للتعرف على معتقداتها المختلفة، ودراسة علاقة هذه المعتقدات مع غيرها من الأحداث التاريخية الأخرى، وهو ما يقتضي منا ما يلي:

1°.القيام بإخضاع المصادر المعتمدة للنقد التاريخي الإسلامي، وأقصد بالنقد هنا علم التخريج كما صاغه المحدثون، بإجراءاته المختلفة؛ دراسة سند الوثيقة، ورواتها، ومدى انتفاء العلة منها، ومضمونها، ثم الحكم عليها.

2°.أن لا تناقض ما ذكره الوحي الإسلامي بشأن الأقوام التي تناولها بالتفصيل. وإن ناقضته فلا يعتد بها، وتعد معلولة بذلك،ولا تذكر إلا على سبيل المقارنة أو النقد أو التوظيف الرامي، لا غير. ونشير هنا إلى قاعدة أصولية مهمة، وهي أن الرواية الصحيحة والمعقول الصحيح لا يناقض الوحي الصحيح، بحال من الأحوال، حتى لا يظن ظان بأن ذلك تحكم، بل إن القرآن ذاته قد طلب التحدي بالمخالفة في آيات التعجيز بالإتيان بمثل القرآن.

---

[32] سورة فاطر، آية24.

2.مرحلة التفسير:

و هي المرحلة التي تتحدد فيها إطار دراسة الفترة التاريخية وطبيعة الارتباطات والعلاقات القائمة بينها وبين غيرها من الوقائع التاريخية، ويبرز المنحى الذي ينحوه الفكر لتنسيق هذه المعطيات وربطها ببعضها البعض. ونسق التفسير في المنهج الإسلامي يتخذ صبغة خاصة، فهو يهتم بالظروف والعوامل والأسباب التي نشأت فيها الواقعة، كما يشير إلى كيفية حدوث الارتباط بين هذه الواقعة وبين غيرها من الوقائع، و يمكن الاستعانة لتحقيق ذلك بكل الطرق والأدوات النقدية الممكنةفي وقتنا الحاضر مع ضرورة التنبه إلى خصوصيات المنهجية الإسلامية. ويعتمد على المبادئ التالية:

1. عدم الاقتصار على عامل واحد في التفسير، بل يعتمد على أكثر ن عالم، ومن ذلك:

1°.العامل الفكري، كما في التحريف الذي قام به بعض أحبار بني إسرائيل، يقول تعالى: (وإن فريقا منهم يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب، وما هو من الكتاب، و يقولون هو من الله، وما هو من الله، ويقولون على الكذب وهم يعلمون)[33]. فالتحريف حسب القرآن كان من غاياته نصرة المذهب الفكري اليهودي، وقوله تعالى:(وقالت اليهود عزير ابن الله و قالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أني يؤفكون)[34] الذي يؤكد أن التأثر النصراني بالوثنية مرده إلى حب المضاهاة.

2°.العامل الاقتصادي: كما في قوله تعالى: (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون)[35]

3°.العامل النفسي: كما في قوله تعالى:(في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون)[36]، وقال:(وأما الذين في

---

[33] سورة آل عمران، أية79.
[34] سورة التوبة،آية30.
[35] سورة البقرة، آية79.

قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون)[37]. وغيرها.

2. الاستعانة بالمنطلقات القرآنية المتعلقة ببعض الأديان في دراستها، إذ أن هذه المنطلقات يمكن أن يصير موجها للبحث والتفسير في تاريخ الأديان، ويصير لها دور الفرضية في النقد التي تحتاج تحقيقا تاريخيا، وحتى يتضح هذا الكلام نأخذ مثالا على ذلك من قضايا تاريخ النصرانية؛ فلو قمنا مثلا بدراستها في القرن الأول، لأمكننا الاستعانة بمواقف القرآن منها فقد رماها بثلاثة أشياء: التحريف، والتثليث، ومضاهاة الذين كفروا، لأسباب هي: نفسية، وهو ما عبر عنه بالمضاهاة:(في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون)[38]، واقتصادية، وهو ما عناه بقوله تعالى:(فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون)[39]. وهنا قد وجه الناقد لفحص هذه الأسباب تاريخيا، ويحتاج ذلك إلى القيام بالمقارنة بين ما تحصلنا عليه من معلومات مع ما يقرره القرآن حول ذلك، ونعيد التذكير بأن القرآن يؤكد صدقه في هذه القضايا، ويطلب التحدي والمعارضة ممن يستطيع ذلك، وهنا تكمن قوته وإعجازه.

والتفسير بالعوامل المتعددة يحتاج إلى إحكام ربط وقائع تاريخ الأديان بباقي وقائع الحياة الإنسانية، ليكون صحيحا لا تعسف فيه. وهذا التوجه في التفسير هو من خصوصيات الإسلامية في النقد والطرح، ومميزا لها هن المداخل المنهجية الأخرى، التي يرتكز على مبدأ أحادية التفسير، كالتفكير الماركسي مثلا.

3. والنسق الإسلامي في تفسير تاريخ الأديان نظام مفتوح على المناهج المناسبة، فيمكن توظيف منهج واحد أو عدة مناهج. و قد وظف

---

[36] سورة البقرة، آية9-10.
[37] سورة الأنفال، آية125.
[38] سورة البقرة، آية9-10.
[39] سورة البقرة، آية79.

الوحي الإسلامي أيضا عدة مناهج في تحليل وتفسير الوقائع التاريخية، وهي:

1. المنهج الجدلي
2. المنهج التاريخي النقدي
3. المنهج المقارن
4. المنهج التكويني

والأخيران هما أهم هذه المناهج، إذ المنهج المخالف يهتم بالمقارنة بين الأديان التاريخية والإسلام من جهة وبين الأديان المختلفة و دين نبي ما، ليثبت دخول التغيير والتحريف على دينه، ويؤكد مخالفة أتباعه له. وأما المنهج التكويني فهو منهج يعتمد المقارنة بين نموذجين، ليصل إلى إبراز عناصر التأثر بينهما، ومدى تأثر الواحد منهما بالآخر، وكيفيات ذلك. وهو منهج حديث التطبيق في الدراسات الإنسانية، إذ له دور هام في تأريخ الأفكار العلمية. فالمنهج يرمي إلى إبراز دور نموذج معين في تكوين نموذج آخر[40]. وما تضيفه التكوينية إلى النماذج الاستدلالية الأخرى أنها تجيب عن سؤال لم تجب عنها المناهج الأخرى، وهو كيف تكونت هذه الأفكار الدينية، أو تلك الطقوس الدينية؟ وقد ظهر في تعامل القرآن مع تاريخ العقائد النصرانية،إذ المسيح عليه السلام في نظره ليس هو صاحب مقولات النصرانية التاريخية، و هو ما يعني أنها حديثة العهد والنشأة، ويعطي للبحث مشروعية البحث عن الثقافات التاريخية التي أثرت في المنظومة العقدية النصرانية بتلك المفاهيم العقدية، وهو الأمر الذي أجاب عنه تعالى بقوله: (وقالت اليهود عزير ابن الله و قالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أني يؤفكون)[41]، فالآية -هنا- تقرن المعتقدات التاريخية السائدة بين اليهود والنصارى بما هو موجود من قبل في الديانات الوثنية. وعليه، فالقول بتأليه عيسى في نظر القرآن هو تأثر بثقافات وثنية كانت تسود المحيط النصراني، وإشارته إلى ذلك كانت عامة مجملة من غير تفصيل. ويمكننا في الوقت الحاضر استخدام نفس

---

40 راجع: Grawitz, **methodes des sciences sosiales** .pp438-439.

41 سورة التوبة،آية30.

المناهج السابقة، إذ لها أهمية خاصة في خدمة العقيدة الإسلامية والتصورات القرآنية. كما يمكننا استخدام مناهج جديدة ورؤى منهجية محدثة، شرط الالتفات إلى مسلماتها المرجعية، ومدى توافقها مع التصورات الإسلامية.

5. إن أهم ما يميز علم تاريخ الأديان ذي المنظور الإسلامي هو إصدار الحكم على الأفكار الدينية، وذلك بعرض العقائد الدينية المستخلصة على علم العقيدة الإسلامية، للنظر في مدى موافقتها لها، وتصنف و تصنف تبعا لذلك. فالمؤرخ هنا لا يقف عند كتابة الأحداث واكتشاف دلالتها وعلاقتها البنيوية، بل يمتد به الأمر إلى الحكم عليها بمعيار واحد، و هو هنا الوحي الإسلامي، ورب قائل يقول إن ذلك سيؤدي إلى طمس الحقائق التاريخية وتلوينها تلوينا تبعا للهوى، و ليس ذلك بصحيح، إذ التقييم هو من وظائف التفسير، و هذا القول فيه خلط بين وظيفة جمع المعلومات ووظيفة التفسير، وشتان بين جمع المعلومات التفسير وبين التفسير، فالأول مرحلة نقدية تتهم بجمع المعلومات وتصنيفها ومحاولة إعادة بناء الواقعة التاريخية كما كانت، لا كما أريد أن تكون، وهنا تكمن موضوعية المؤرخ، والثانية، أي التفسير قراءة نقدية للأحداث التاريخية، ولا يمكن فصلها بحال عن الإطار المرجعي للباحث، وما مارسه كبار المؤرخين في تحليلهم لقضايا هو من هذا القبيل، و ودونك كتاب ول ديويرانت'قصة الحضارة'، الجزء الأول، لترى فيه كيف يقدم على قراءة تأويلية لقضايا تاريخ الأديان، ودونك فرانكفورت، في كتابه 'ما قبل الفلسفة'، لترى قراءة نقدية أخرى لتاريخ الأديان القديمة. والمجادلة في هذا مكابرة وعناد، وأحسبه من قبيل حلال علينا حرام عليكم، لأن من يدعي هذا القول لا تخلو ولن تخلو قراءته من تقسيم للتاريخ، فلا جرم أن أقوم بقراءة تاريخية لتاريخ الأديان بنفس إسلامي، ولك أن توجه لي ولقراءة أي نقد تريد، لأعاود النظر مرة أخرى، لأصحح، أو لتصحح موقفك، و نذكر مرة أخرى أن قوة القرآن تكمن في طلبه المعارضة أو الموافقة.

5. الخروج بفلسفة حول النواميس التاريخية المتعلقة بتاريخ الأديان، وفهم بنيتها، والأدوار والوظائف التاريخية والحضارية التي تقوم بها.

وكل هذا يؤكد لنا أن توظيف المنهج الإسلامي في علم تاريخ الأديان سيثريه ويزيده دقة نضجا.

قد أكون في بحثي هذا لم أحط الإحاطة الكافية بخصائص المنهج الإسلامي في دراسة تاريخ الأديان، ولكن الأكيد أنني طرحي إشكاليات منهجية ومعرفية تحتاج بحثا ونقدا للإثراء. وهذا التصور لا يدعي بأنه هو التصور الوحيد لخصائص المنهجية الإسلامية في دراسة تاريخ الأديان، إذ يمكن أن يقترح باحث آخر نسقا إسلاميا، يخالف هذا النسق في النسق المنهجي الإجرائي، ولكن لا يمكن أن يخالفه بحال في مصادره ومنطلقاته.

والحمد لله رب العالمين

مراجع البحث


1. Arkoun ,M ; essaie Sur la pensee islamique ; (France:Maison noeuve,1986)
2. bouamama Ali, la létturature polémique musulmane contre le christianisme depuis ses origines j'usqu'au 8siecle (Alger: Entreprise nationaledu livre,1984)
3. Bultman. R, le christianisme primitif. dans le cadre des religions antiques, (France :Payot,69)
4. Dufour Leon-X, les Evaugiles, in encyclopeocidia universalis , (Paris , E, U,1998)
5. Duplacy,J,Ou on est la critique textuelle du nouveau testament, (Paris:Gabalda,1959)
6. Eliade Mercia , la nostalgie des origines, (france:gqllimardm1977)
7. Mislin Michel, pour une science des religions, (Paris:Le Seuil,1977 ).
8. محمد محمد أمزيان. منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية. (واشنطن: المركز العالمي للفكر الإسلامي.1989)
9. د. محمد خليفة حسن أحمد ، علاقة الإسلام باليهودية – رؤية إسلامية في مصادر التوراة الحالية.(القاهرة : دار الثقافة 10.للنشر والتوزيع ، 1988)
11.لونز. معالم تاريخ الإنسانية. (مصر:دار النهضة.67)
12.رالف لنتون: شجرة الحضارة. (الجزائر: موفم)